البحث العلمي في العلوم التربوية

يُعدّ البحث العلمي في العلوم التربوية نشاطًا منهجيًا منظّمًا يهدف إلى فهم الظواهر التربوية وتفسيرها، والسعي إلى تحسين الممارسات التعليمية استنادًا إلى بيانات وأدلة علمية موثوقة. ولا يقتصر البحث العلمي على جمع المعلومات فحسب، بل يقوم على الالتزام بمجموعة من الخصائص المنهجية التي تضمن موضوعيته، ودقته، وقابليته للتحقق، بما يسهم في إنتاج معرفة علمية يمكن الاعتماد عليها وتوظيفها في الواقع التربوي (Creswell & Creswell, 2018).

أولًا: الخصائص الأساسية للبحث العلمي

1. الموضوعية (Objectivity)

تشير الموضوعية إلى التزام الباحث بالحياد العلمي في جميع مراحل البحث، بحيث تُستمد النتائج من البيانات والأدلة التجريبية، لا من الميول الشخصية أو الأحكام المسبقة
.
في البحوث الكمية، تتحقق الموضوعية من خلال استخدام أدوات قياس مقننة وإجراءات موحدة قابلة للتكرار.(Ary et al., 2019)
أما في البحوث النوعية، فتتجلى الموضوعية في الشفافية والدقة في توثيق إجراءات جمع البيانات وتحليلها، بما يسمح للقارئ بتتبع مسار البحث وفهم منطق تفسير النتائج (Merriam & Tisdell, 2016).
ويقتضي ذلك أن تستند نتائج دراسة أثر أسلوب تدريس معين، على سبيل المثال، إلى معطيات واقعية لا إلى قناعات الباحث بشأن فاعلية ذلك الأسلوب.

2. الدقة (Precision)

تعني الدقة استخدام مفاهيم واضحة، ومصطلحات محددة، وإجراءات قياس مضبوطة، بما يتيح التحقق من النتائج وإمكانية تكرارها.(Fraenkel et al., 2020)
في البحوث الكمية، تظهر الدقة من خلال تحقق الصدق والثبات الإحصائي لأدوات القياس.
أما في البحوث النوعية، فتتحقق الدقة عبر الوصف التفصيلي للظاهرة المدروسة وسياقها، بما يسمح بفهم المعاني كما يعبّر عنها المشاركون أنفسهم.(Patton, 2015)
وعلى سبيل المثال، يتطلب تحليل مفهوم "مناخ الصف الدراسي" تحديد مؤشرات دقيقة كالتفاعل والتعاون، بدل الاكتفاء بوصف عام غير محدد.

3. القابلية للتحقق (Verification)

تُعد القابلية للتحقق من الخصائص الجوهرية للبحث العلمي، إذ تتيح للباحثين الآخرين مراجعة الإجراءات أو إعادة تطبيق الدراسة للتحقق من صحة النتائج (Gay et al., 2012).

في البحوث الكمية، تتحقق هذه الخاصية من خلال إمكانية تكرار الدراسة في ظروف مماثلة. أما في البحوث النوعية، فتتحقق عبر أساليب مثل مراجعة الزملاء، أو التحقق من مصداقية التفسيرات ضمن السياق الاجتماعي نفسه.

4. التفسير المبسّط (Parsimonious Explanation)

يسعى البحث العلمي إلى تقديم تفسيرات واضحة وبسيطة نسبيًا للعلاقات بين المتغيرات، دون الوقوع في تعقيد غير مبرر.(Kerlinger & Lee, 2000)
ولا يعني التبسيط السطحية، بل الوصول إلى تفسير جوهري يسهل فهمه واختباره علميًا.
فمثلًا، يُعد تفسير العلاقة بين الإحباط والعدوان تفسيرًا مبسطًا نسبيًا وقابلًا للاختبار، مقارنة بتفسيرات غامضة متعددة المتغيرات دون تحديد واضح.

5. التجريبية (Empiricism)

يقوم البحث العلمي على الاعتماد على الأدلة والبيانات المستمدة من الواقع، وليس على الآراء أو الانطباعات الشخصية.(Best & Kahn, 2014)
وتتنوع مصادر البيانات في البحوث التربوية بين الاختبارات التحصيلية، والاستبيانات، والمقابلات، والملاحظات الصفية.
وعليه، فإن الاستنتاج القائل بأن الطلبة ذوي مهارات القراءة الضعيفة يحققون مستويات تحصيل أدنى يُعد استنتاجًا علميًا ما دام قائمًا على بيانات تجريبية موثقة.

6. التفكير المنطقي (Logical Reasoning)

يمثل التفكير المنطقي الأساس الذي تُبنى عليه عملية تحليل البيانات وتفسير النتائج. وينقسم إلى نمطين رئيسيين:(Cohen et al., 2018)

- التفكير الاستنباطي، الذي ينطلق من نظريات أو فرضيات عامة لاختبارها على حالات جزئية.
- التفكير الاستقرائي، الذي يبدأ من الملاحظات الجزئية لبناء تعميمات أو أطر نظرية.
  وغالبًا ما يُوظَّف النمطان معًا ضمن دورة بحثية متكاملة تجمع بين الملاحظة الميدانية والتفسير النظري.

7. التفكير الاحتمالي (Probabilistic Thinking)

تتسم نتائج البحوث التربوية بالطابع الاحتمالي، إذ لا تعبّر عن قوانين مطلقة، وإنما عن اتجاهات عامة قابلة للتغير بتغير السياقات والعوامل المؤثرة.(Neuman, 2014)
ومن ثمّ، يُعبَّر عن النتائج بصيغة احتمالية، مثل القول إن الإحباط غالبًا ما يؤدي إلى العدوان، دون الجزم بحدوثه في جميع الحالات.

ثانيًا: مقارنة بين البحث الكمي والبحث النوعي من حيث الخصائص

يتضح من الممارسة البحثية أن البحث الكمي يميل إلى الموضوعية الصارمة والدقة الإحصائية، ويعتمد على القياس الرقمي والتحليل الإحصائي، مع قابلية عالية للتكرار. في المقابل، يركّز البحث النوعي على الفهم العميق للظواهر في سياقها الطبيعي، ويعتمد على الوصف التفصيلي والتفسير السياقي، مع مرونة أكبر في الإجراءات، وإن كانت نتائجه أقل قابلية للتكرار المباشر.

الخاتمة

تمثل خصائص البحث العلمي، المتمثلة في الموضوعية، والدقة، والقابلية للتحقق، والتفسير المبسط، والتجريبية، والتفكير المنطقي، والطابع الاحتمالي، إطارًا منهجيًا يضمن جودة البحوث التربوية ومصداقيتها .(Creswell & Creswell, 2018) وتسهم هذه الخصائص مجتمعة في تحويل الظواهر التربوية من مجرد ملاحظات أو آراء فردية إلى معرفة علمية قائمة على المنهج والأدلة، وقابلة للتوظيف في تطوير الممارسة التعليمية.